

## المدنية العربية في الغرب<sup>(۱)</sup>

يقولون ان المدنية ولدت في الشرق وانها بعد ذلك اخذت طريق الشمس .  
ولعمري ان هذا القول لجين ولكنه لا يستفى مع الحقائق التاريخية . فان مهد  
الحضارة يجب ان يبحث عنه هنا بين هياكل قدماء المصريين ومعابدهم . اولئك  
القوم الذين نرى اهرامهم العظيمة تطاول السماء وهي شهود قاعة منذ آلاف السنين  
بالاستعداد بخلود النفس . وهم باختراعهم الحفر الذي كانت منه اصول الحروف  
المهجائية قد وضعوا الاساس الابدي للعلم والعرفان والحضارة

حقيقة تبقت المدنية على ضفاف النيل وابنت نمازها ومنها امتدت الى  
شواطئ البحر الابيض المتوسط الشرقية ومن ثم الى الشواطئ الغربية وبتوالي  
الزمن وبشعر الشعوب يتداولها انخلف عن السلف تحسنت الى ان اخذت زخرفها  
واصبحت تزهر في ثوبها الابنق الذي نراها ترفل به الآن

وبينما كان نجم المدنية الرومانية التي قامت على اطلال المدنات القديمة قد  
اخذ في الافول وكانت اوربا قد عادت وسقطت في ظلمات الجهل كانت العرب  
يشرفون برؤوسهم من سواحل البحر الابيض المتوسط ولم يلبثوا ان قامت منهم  
تلك البعثة الخطيرة التي ايقظت الامم الاوربية النائمة

وان ظهور العرب في الغرب لحادث جليل يستحق ان يذكر منا بالسكر  
والامتنان لان مدنية هذا الشعب العظيم كان لها تأثير واي تأثير في حياة الشعوب  
اللاتينية بل الاوربية

كان العالم اليوناني واخوه الروماني قد سقطا في كل مكان عندما اخرج  
محمد العظيم خلفاءه من ابناء الصحراء ونشرهم في انحاء العالم لفتحهم وغزورهم  
فانتشروا في كل مكان وجروا فوق سهوات جيادهم شرقاً وغرباً حتى شيدوا ذلك  
الملك الكبير الزاهر الذي كان يمتد من بلاد الهند الى بلاد الاندلس ومن بحر الخزر  
حتى المحيط الاطلسي

(۱) محاضرة القاها الدكتور الاستاذ لوريجي رينالدي تزيل القاهرة في نادي خريجي المدارس  
الاطيالية وقتها من اللغة الايطالية الى العربية الاديب طه انندي فوزي

لم تكن المدنية التي اكتسبت من الفتح الاسلامي متساوية في جميع البلاد التي افتتحوها ولكن يمكننا القول بوجه عام انه في الاقاليم التي كان يسكنها الجنس السامي مثل بلاد العراق والشام ومصر وجميع بلاد افريقيا الشمالية كان تفوذهم ذا تأثير فعال ذلك بان نقلوا اليها ديانتهم وعاداتهم ولغتهم اما في البلاد الاخرى فبدلاً من ذلك كان تفوذهم يقل كثيراً او قليلاً وكان جزئياً حتى في نفس الشرق خصوصاً في بلاد انفرنس التي كان يسكنها فرع من سلالة الجنس الاوربي فان تفوذ الاسلام فيها لم يكن عميقاً ذلك ان هذا الشعب تحت ثياب الديانة الجديدة لم يلبث ان اعلن استقلاله وجنسيته ووطنيته وسرعان ما اوجد انشقاقاً دينياً وسياسياً. كذلك لم يكن التأثير في لغة هذا الشعب قوياً جداً نعم ان تلك اللغات اللغوية الممارسة مأخوذ من اصل عربي الا ان التأثير لم يتسلط على القواعد اللغوية ما عدا بعض مواضع قليلة نادرة

اما اوربا حيث وجد العرب واقاموا ودحا من الزمن فلم يكن لهم فيها اي تأثير ديني وكذلك كان تفوذهم على اللغة ضئيلاً

قلت في ايطاليا اعني صقلية اما في باقي بلادنا حيث وضع العرب اقدامهم ووقفوا قليلاً لم يبق اثر يذكر لانهم ولا لاستعمارهم

هذا ويجب ان نلاحظ ان العرب في فتوحاتهم كانت معامتهم لاهالي البلاد المفتوحة تختلف حسب نياتهم فاذا عقدوا العزيمة على فتح البلد والاقامة به كانوا يحتلون احتلالاً كلياً وكانت سياستهم مع الشعوب المحكومة سياسة التقرب والتحبب اليهم لجلب رضائهم وذلك باحترام ديانتهم واعطائهم كامل الحرية في اقامة شعائرهم وقوانينهم وانظمتهم وتركهم لهم حرية الشخصية . ولم يكونوا يفرضوا عليهم غير ضريبة شخصية خفيفة تسمى في اللغة الصقلية *Dono* ومعناها بالعبودية الجزية الشخصية وكان يستثنى من دفعها النساء والاطفال والفقراء والمرضى ورجال الدين وهذا مثل لا اعتداهم ولذلك نجح الفاتحون العرب في اكتساب مودة الحكوميين واحترامهم

واما اذا كان غرضهم مجرد الغزو بقصد الانتقام فكانوا يجدون المقاومة الشديدة والكرامة من الاهالي لانهم كانوا يعتبرون البلد الذي يتمكنون من فتحه غنية اضمروها ويجب الاستفادة منها على قدر الامكان فكانوا يشولون

على كل ما تقع عليه ايديهم ويتلقون ما لم يمكنهم اخذه وقد وقع شيء من هذا في فرنسا واطاليا

لم يحدث شيء من ذلك في صقلية بل كان الامر على عكس ذلك اذ كانوا يتبعون طريقة اخرى فانهم احتلوا باجمعها في منتصف القرن التاسع من الميلاد بينما كانت تلالاً مدنيتهم في الشرق وفي الغرب فنقلوا اليها كل علومهم وصنائعهم وعوائدهم وآدابهم وقد اثبت ذلك المؤرخ الايطالي الشهير (آماري) في مؤلفه المسمى «المسلمون في صقلية» حيث قال «وكان يعيش الرعايا المقهورون في راحة وسرور تحت حكم امراء المسلمين وكانت حالتهم احسن بكثير من حالة اخوانهم الايطاليين الذين كانوا يرزحون تحت نير اللنجهورمانيين والترنجه»

استمر العرب يحكمون صقلية قرنين ونصفاً ثم استولى النورمانيون على مقاليد الحكم في البلاد من ايدي العرب المقهورين ولكن بقي من هؤلاء بالجزيرة كثيرون وكانوا لا يزالون يؤثرون في هذا الشعب حتى تحت حكم هؤلاء الامراء الجدد فكان منهم المعلمون والاساتذة والعمال المهرة وبفضلهم تقدمت العلوم وارتقت الصناعات ولما كان وجودهم ضرورياً لرقى البلاد فقد شملهم الملك ودرى بمجانيته اخاصة طول مدة حكم النورمانيين. هذا ولا تزال الى الآن موجودة برادات ملوك النورمان مكتوبة باللغات العربية واللاتينية واليونانية كذلك كانت اللغة العربية احدى اللغات التي تضرب بها تقودهم وعليها اشارتا الاسلام والمسيحية (الهلال والصليب) ولم يقتصر الامر على ذلك فقط بل كان يوضع عليها ايضا نص قاعدة العقيدة الاسلامية بالعربية فقط وهي

لا اله الا الله محمد رسول الله

كذلك استمر الامراء الذين خلفوا النورمانيين في حكم البلاد على ضرب تقودهم باللغة العربية. وبهذه المناسبة يحسن ان نلاحظ ان كلمتي zecca ومعناها السك و zecchino محل سك النقود هما كلمتان عربيتان

ولقد كان ملكهم فردريك الثاني كثير الاهتمام باللغة العربية وآدابها حتى ضرب فيها بسهم وافر واذا اردنا ان نعرف الى اي حد وصل النفوذ العربي في صقلية فيكفي ان نسمع ما يقوله عربي صميم هو الرحالة العالم الجغرافي محمد

بن جبير الذي زار الجزيرة سنة ١١٨٧ في أيام الملك غليوم الثاني واثبت في رسالته المسماة « رحلة في صقلية » قال فيها

« وشأن ملكهم هذا عجيب في حسن السيرة واستعمال المسلمين واتخاذ الفتيان المحاييب وكلهم أو أكثرهم كاتم إيماناً متمسك بشريعة الاسلام . وهو كثير الثقة بالمسلمين وسأكن اليهم في احوالهم والمهم من اشغاله حتى ان الناظر في مطبخه رجل من المسلمين وله جملة من العبيد السود المسلمين وعليهم قائد منهم ووزراؤه وحجابه الفتيان وله منهم جملة كبيرة هم اهل دولته . وليس في ملوك النصراري اترف في الملك ولا ارفه منه وهو يشبه في الانفاس في نعيم الملك وترتيب قوانينه ووضع اساليبه وتقسيم مراتب رجاله وتفخيم ابهة الملك واظهار زينته بملوك المسلمين . . . ومن عجيب شأنه المتحدث به انه يقرأ ويكتب بالعربية وشعاره على ما اعلنا به احد المختصين به ( الحمد لله حق حمده ) . واما فتية الذين هم عيون دولته واهل عمالته في ملكه فانهم مسلمون . وزى النصرانيات في هذه المدينة ( بلم ) زى نساء المسلمين فصيحات الالسن ملتصقات متتقيات خرجن في هذا العيد المذكور ( عيد الميلاد ) وقد لبسن ثياب الحرير المذهب والتحفن اللحف الراتقة وانتقبن بالنقب الملوثة واتملن الاخفاف المذهبة وبرزن لكنائسهن او كنسهن حاملات جميع زينة نساء المسلمين من التحلي والتحفص والتعطر »

ولا يزال بين بعض اهل الجزيرة حتى الان بعض عادات تشبه عادات المسلمين . وقد ترك المسلمون كذلك عدداً عظيماً من كلماتهم في اللغة الصقلية والايطالية ولا تزال كذلك عدة اماكن بصقلية تحمل اسماءها العربية مثل قلعة Caltanissetta قلعة النساء و Calatagirone قلعة فيمي Calatafimi و قلعة الجن Caltabellotta قلعة البلوط وغير ذلك كثير . كذلك كلمة Marza مرمى مثل Marsala مرمى على و Marzameni مرمى المينا و Misilmeri منزل الامير و Mezzoiuso منزل يوسف و Regalmotu رحل الموت و Resuttana رحل السلطانة وكثير من اسماء الانهار مثل Alcantara القنطرة و Dittaino وادي الطين و Rasigelbi ( الراس الشرقي بالجزيرة ) ومعناه بالعربية رأس القلب و Rasicanzir و رأس الخنزير و Rasicornو رأس القرن . ولا يزال اسم احد الطرق الرئيسية

في بلرم عربياً وهو Casaro اي القصر وقد يضيق المقام عن ذكر اسماء  
مئات الاماكن

ولقد انتقل كثير من الكلمات العقلية التي من اصل عربي الى اللغة الايطالية  
اخص بالذكر منها كلمة استعملها كثير من الكتاب الصقليين ثم تداخلت في اللغة  
الايطالية الفصحى وهي لفظة Zagara (زهرة) ومعناها بالعقلية زهر البرتقال.  
ولم تكن الكلمات فقط هي التي دخلت ايطاليا وانما تدرت ايضاً بعض جداول  
من الدم العربي مع الجالية العربية التي نقلها معه الى مدينة لوشيرا Lucera  
الملك فردريك الثاني

ولما كان العرب في صقلية مضطربين ازاء عدم التسامح الديني والتعصب الذي  
لم يتأخر لحظة واحدة عن الظهور بعد زوال ملكهم من صقلية الى احتناق الديانة  
المسيحية فقد اختلطوا بطبقة الشعب وهذا ما وقع ايضاً لمسلمي لوشيرا فلقد سمح  
لم شارل الثاني بالبقاء في ملكه على شرط ان يعتنقوا المسيحية. ولقد عرف  
اولادهم من بعدهم باسم Merrani اي المران وهي كلمة عربية اخذناها من  
الاسبانيين وكانوا يلتبسون بها المسلمين الذين اعتنقوا المسيحية بالاندلس بعد  
ان دالت دولتهم منها وكانت مدينة لوشيرا مدينة اسلامية محضة حتى ان كلمة  
Lucerini (اي سكان لوشيرا) كانت تؤدي معنى Saraceni الشرقيين  
او المسلمين

هذا ولا ننس ان العرب تركوا بعض الآثار في ايطاليا خارج صقلية حيث  
وضعوا رحالهم ووقفوا فترة من الزمن فان كلمة اياثرو حاضرة جزيرة قورسيقا  
وجارليانو (اسم نهر) كلمتان عربيتان

ولكن الجزء الاعظم من الكلمات العربية الباقية في لغتنا الايطالية التي تفوق  
المصر وكانت موضوع بحثي الخاص دخلت في اللغة لا بطريق الاستعمار العربي  
ولكن بطريق المدنية التي كثيراً ما تترلف وتواخي بين مظاهر الحياة المختلفة  
وان وجود هذه الكلمات في اللغة الايطالية يشهد بما كان للمدنية العربية  
من نفوذ عظيم في العالم المسيحي وبما كان من العلاقات التجارية بين بلادنا وبين  
المسلمين في الشرق وافريقيا الشمالية وصقلية تلك العلاقات التي تشهد بالفترة  
الجيدة في تاريخ جمهورياتنا البحرية التي كانت سفنها تمخر حباب البحر الابيض

المتوسط طولاً وعرضاً واوجدت على سواحلها عدداً عظيماً من جالياتها المهمة اجتاح العالم المسيحي حوالي سنة ١٠٠٠ ميلادية غزو اسلامي جديد كان كالسيل الجارف ولم يكن اي حاجز يقوى على صده ولكنها كان في هذه المرة مخالفاً لسابقه اذ لم يكن ضفطه على الاجساد بل على العقول « ذلك الغزو كان التهذيب العربي والمدينة العربية فان شمس الصحراء العظيم ظهر على وجه الارض بعد سقوط المدينتين الرومانية واليونانية واندثار معالمهما وعقب ذلك النصر الديموي الكبير الذي احرزهُ بصلاحه ذلك النصر الجليل الذي كان نتيجة الدرس والتعليم الذي اوجده اراء العرب وسهواً سبلةً لابنائهم وبذلك قام العرب في ظلمات بربرية الترون الوسطى باعادة نور الحضارة والمدينة الذي كان قد انطفأ في جميع بلاد الغرب والشرق حتى القسطنطينية ولقد قال بريس دافن Prisse D' Avenne الذي وضع كتاباً في الفن العربي « انه بعد سقوط الدولة الرومانية لم يكن هناك شعب يستحق ان يعرف غير الشعب العربي وذلك اولاً لكثرة فطاحل الرجال الذين اخرجهم هذا الشعب العظيم وثانياً لما احدثته فنون هذا الشعب وعلومه من التقدم العجيب في العالم مدة قرون عديدة »

وفي ايام سقوطنا لجأ العلم الى ظل الاديرة الهاديء حيث كان الرهبان الساكنين قد اذروا في مقصوراتهم واخذوا يحضون رغامتهم القديمة ليكتبوا عليها اصول ديانتهم وكانت مدينة العرب في القرنين التاسع والعاشر في الاندلس وصقلية قد بلغت اوج السكال فلما شعرنا بالحاجة الى دفع ذلك الجهل الذي كان يشغل كاملنا تقدمنا الى العرب ومددنا اليهم ايدينا لانهم كانوا الاساتذة الوحيدين في العالم تسرب العلم من اسبانيا وصقلية الى بلاد اوربا . ومضى ان جيلت الذي كان بابا في سنة ٩٩٩ ميلادية تحت اسم سلفسترو الثاني تلقى دروسه كلها في مدارس العرب بالاندلس ولما رجع الى اوربا واراد نشر ما اخذه من العلوم بين مواطنيه ظهر لهم ما نشره بينهم غريباً جداً حتى انهم اتهموه بأنه باع روحه للجن

ولقد انشئت بعد ذلك كلية المترجمين في سنة ١١٣٠ بمدينة طليطلة تحت رعاية المطران رايكوندو وقامت بترجمة اشهر المؤلفات العربية والكتب التي كان قد ترجمها العرب من اللاتينية . وفي ذلك الوقت كان العالم المسيحي في صراع مع العالم العربي فبينما كان رسل الصليبيين يذهبون بعددهم وعدادهم لا تراعى الا ما كن المقدسة

من ايدي العرب في الشرق كان هنا في الغرب ينتزع منهم ملك العلم والعرافان الذي اوجده اليونانيون والذي كساه العرب لياماً جديداً لان العلوم اليونانية التي كانت قد انتقلت الى اديرة المسيحيين بسوريا انتقلت منها الى بلاد انفرنس ومن ثم الى بغداد حاضرة العالم الاسلامي . ولقد كان اليونانيون بذلك اساتذة العرب الاولين وهؤلاء كانوا يتولون على معارف الشعوب القديمة الذين كانوا يدخلون بلادهم . وليس ثمة اغرب من تلك الحركة العلمية التي ابتدأت في بلاد العرب سنة ۷۵۰ ميلادية وانتقلت الى بغداد التي كان يسميها العرب « دار العلوم » وانتشرت في الغرب في الاندلس وسقلية ثم في اوربا

حقيقة ازهرت الحضارة في ظل الهلال وذلك بفضل الرعاية العظيمة التي كان الخلفاء والامراء العرب يشملون بها العلوم والآداب حتى ان العلماء المسيحيين كانوا يستدعون الى قصورهم ويمجدون منهم عطفاً واحتراماً عظيمين وكذلك في العهد المتوسط كان الامراء المباسيون في الشرق والامويون في الغرب يمددون جهود برقليس وانطس

وكانت عادة للعرب عند ما يمتلنون اي مدينة ان يؤسروا فيها مسجداً يقيمون فيه شعائر دينهم ومدرسة يعلمون فيها ابناءهم وما كان اعظم جامعتهم في بغداد والقاهرة وقرطبة وغرناطة واشبيلية وطليطلة وكانت مدرسة القاهرة الجامعة المشهورة بيت زويلة من اعظم جامعات العالم ومكانها الآن مسجد المؤيد كذلك كان في الاندلس وحدها سبعون مكتبة فيها الوف من الامصار النافعة . وكان في مكتبة قرطبة وحدها زهاء الستمائة الف مجلد في ايام الخليفة الحكم الثاني الذي كان يرسل رجاله في جميع بلاد الشرق للبحث والتنقيب عن الكتب الحديثة والقديمة وكان يكاثفهم ويجزل لهم العطاء كلما عثروا بكتاب نافع . وكان ينفق في هذا المييل من المال الشيء الكثير وربما كان هذا الخليفة العظيم اكثر الملوك اشتغالا بالعلم وعناية به واجودهم في سبيله . اذ كان كثير الاهتمام بنشر العلوم في بلاده فاسس في قرطبة وحدها سبعا وعشرين مدرسة كان يتعلم فيها اولاد الفقراء مجاناً حتى لقد كان كل احد في الاندلس كما روى دوزي (Dozy) يعرف القراءة والكتابة بينما كان في اوربا جميع المسيحيين حتى نبلاؤهم واشرافهم غير التابعين للاكثيروس لا يفكرون في التعلم متاتي البقية